مظاهر الشرك

الشرك في العصر القديم

عبيد الله الباقي أسلم
المدينة النبوية

أولًا: تعريف الشرك لغة واصطلاحًا:

أ- تعريف الشرك لغةً:

الشرك يدور على عدة معانٍ:

١. المخالطة،والمشاركة(١)،والنصيب، والحظ(٢)،والتسوية بين شيئين(٣) وغير ذلك.

قال ابن فارس (ت٣٩٥هـ): "الشين والراء والكاف أصلان، أحدهما يدل على مقارنة وخلاف انفراد، والآخر يدل على امتداد واستقامة.

فالأول الشركة، وهو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما. ويقال: شاركت فلاناً في الشيء، إذا صرت شريكه. وأشركت فلاناً، إذا جعلته شريكًا لك"(٤).

وقال ابن منظور(ت٧١١هـ): "الشركة والشركة سواء: مخالطة الشريكين، يقال: اشتركنا بمعنى تشاركنا، وقد اشترك الرجلان وتشاركا وشارك أحدهما الآخر"(٥).

فالشرك لغةً هو: اسمٌ للشيء الذي يكون بين أكثر من واحد؛ بحيث لا ينفرد به أحدهم(٦).

ب: تعريف الشرك اصطلاحًا:

---

(١) ينظر: المفردات (ص:٤٥١).
(٢) ينظر: لسان العرب (٧/ ٩٩ - ١٠٠).
(٣) ينظر: لسان العرب (٧/٩٩)، والنهاية في غريب الحديث (٢/ ١١٤٤).
(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٢٦٥).
(٥) لسان العرب لابن منظور (١٠/ ٤٤٨)
(٦) ينظر: أساس البلاغة للزمخشري (ص٣٢٨)، وتهذيب اللغة للأزهري (١٠/ ١٦)، والقاموس المحيط للفيروزآبادي(ص١٢٢٠)، وتاج العروس للزبيدي (٧/ ١٤٨)، والمعجم الوسيط (١/ ٤٨٠).

الشرك: هو مساواة غير الله بالله فيما هو حق لله(١).

والمراد بحق الله تعالى هو: كل ما لا يقدر عليه إلا الله؛ فلا يطلب إلا منه عزَّ وجلَّ، فإذا طلب من غيره، كان صرفًا لخصائص الله لغيره (٢).

فأجمع تعريف للشرك هو قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أن تجعل لله ندّاً وهو خلقك»(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله–: "أصل الشرك: أن تعدل بالله تعالى ومخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده"(٤).

وقال ابن القيم –رحمه الله–: "كل شرك بأن يجعل لله عدلًا بغيره في اللفظ أو القصد أو الاعتقاد"(٥).

وعلى ذلك فمن صرف شيئًا من خصائص الربوبية، أو شيئًا من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، أو شيئًا من أنواع العبادة لغير الله فقد جعل ذلك الذي صرف له شريكًا لله سبحانه وتعالى(٦).

ثانيًا: بداية الشرك في البشرية:

خلق الله الجن والإنس ليخلصوا العبادة بجميع أنواعها له من السجود والركوع والدعاء والاستعانة والاستغاثة والذبح والنذر وما إلى ذلك.

فكان آدم عليه السلام نبيّاً يعبد الله وحده لا شريك له، وعلّم أبناءه التوحيد؛ حيث سُئِلَ النبي ﷺ عن آدم: أنبي هو؟ قال: «نعم، نبي مُكلّم، خلقه الله بيده، ثم نفخ فيه روحه...»(٧).

---

(١) ينظر: شرح نواقض التوحيد لحسن عواجي (ص:١٣).

(٢) ينظر: أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٦١٤).

(٣)صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله تعالى:{فلا تجعلوا لله نداً وأنتم تعلمون}(ح:٤٤٧٧)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب (ح:٨٦).

(٤) الاستقامة (١/ ٣٤٤).

(٥) إعلام الموقعين (١/ ٢٥٢).

(٦) ينظر: الأسئلة والأجوبة في العقيدة للشيخ صالح الأطرم(ص:٢٨).

(٧) مسند أحمد وللفظ له: (١٠ / ٥٢٣٨) (ح: ٢٢٧١٩)، وصحيح ابن حبان: (١٤ / ٦٩) (ح٦١٩٠)، و المعجم الكبير للطبراني: (٨ / ١١٨) (ح: ٧٥٤٥)، والمعجم الأوسط له: (١ / ١٢٨) (ح :٤٠٣)، ومستدرك الحاكم (٢ / ٢٦٢) (ح: ٣٠٥٧)،وصححه الشيح الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦/ ٣٦٠) (ح: ٢٦٦٨).

وكانت البشريّة في أول أمرها على التوحيد، ثم طرأ عليها الشرك وتعدد الآلهة؛ فأولُّ شركٍ وقع في بني آدم هو شرك قوم نوح عليهم السلام، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] ، قال ابن عباس –رضي الله عنهما-:" كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق"(١)، فصارت أول فرقة قبورية وثنية هي قوم نوح عليه السلام، قال تعالى حكايةً عنهم: فهذه: "أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، وتنسخ العلم عبدت"(٢)، فظهر الشرك في قوم نوح عليه السلام بمكر الشيطان وكيده لبني آدم في الإغواء والإضلال بسبب عبادة القبور وأهلها، قال تعالى في الحديث القدسي: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتْهم عن دينهم»(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله-: "أصل الشرك في بني آدم كان من الشرك بالبشر الصالحين والمعظمين؛ فإنهم لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوّروا تماثيلهم ثم عبدوهم، فهذا أول شرك كان في بني آدم، وكان في قوم نوح"(٤)

ثم انتقل الشرك إلى قوم إبراهيم عليه السلام في صورة عبادة الكواكب، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه

---

(١) مسند البزار: (١١ / ٩٩) (ح:٤٨١٥)، ومسند أبي يعلى: (٤ / ٤٧٣) (ح:٢٦٠٦)، والمعجم الكبير للطبراني: (١١ / ٣٠٩) (ح:١١٨٣٠) ، ومستدرك الحاكم وللفظ له: (٢ / ٤٤٢) (ح:٣٦٧٥)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ، ولم يخرجاه.

(٢) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن – سورة نوح –، باب: ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق (ح٤٩٢٠).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار(ح:٢٨٥٦).

(٤) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٦٣).

الله-:"المشركون الذين وصفهم الله ورسوله بالشرك أصلهم صنفان: قوم نوح وقوم إبراهيم، فقوم نوح كان أصل شركهم العكوف على قبور الصالحين، ثم صور تماثيلهم، ثم عبدوهم، وقوم إبراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر"(١).

والحاصل:أن الشرك يرجع إلى أصلين:

الأصل الأول:عبادة الصالحين؛ كانت في قوم نوح عليه السلام.

الأصل الثاني:عبادة الكواكب؛ كانت في قوم إبراهيم عليه السلام(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله-:"الشرك في بني آدم كان أصله عبادة الصالحين...ثم قوم إبراهيم انتقلوا إلى الشرك بالسماويات، بالكواكب، وصنعوا لها الأصنام بحسب ما رأوه من طبائعها..."(٣).

(١) المصدر السابق (١/ ١٥٧).

(٢) ينظر: المطالب المفيدة في مسائل العقيدة (١/ ٤٦٣).

(٣) المصدر السابق (٦/ ٢٥٥).

فثبت أن أصل شرك العالم هو: عبادة الأشخاص ثم عبادة الكواكب.

ثالثًا: مظاهر الشرك في الأمم السابقة:

أ- مظاهر الشرك في الأمم السابقة في الربوبية:

إن الخلق مجمعون على إفراد الله بالربوبية وكمال صفاته، وقد أخذ الله تعالى منهم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم بذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله-: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ يقتضي أنه هو الذي جعلهم شاهدين على أنفسهم بأنه ربهم، وهذا الإشهاد مقرّون بأخذهم من ظهور الآباء..."(٤).

فلم يدع أحد في الخلق أبدا شركة في الربوبية، وسبب ذلك كما قال شيخ

(٤) در تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٨٧).

الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:"فإذا كان في فطرتهم ما شهدوا به من أن الله وحده هو ربهم، كان معهم ما يبين بطلان هذا الشرك، وهو التوحيد الذي شهدوا به على أنفسهم، فإذا احتجوا بالعادة الطبيعية من اتباع الآباء، كانت الحجة عليهم الفطرة الطبيعية العقلية السابقة لهذه العادة الأبوية"(١).

وبذلك احتج عليهم الرسل عليهم الصلاة والسلام في إخلاص العبادة لله وحده، قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠].

"فدل ذلك على أنه ليس في الله شك عند الخلق المخاطبين، وهذا يبين أنهم مفطورون على الإقرار"(٢).

ومن شذّ عن هذا الأصل الأصيل -كالدهرية قديمًا، والشيوعية حديثًا وغيرهم – فإنكارهم لله سبحانه وتعالى إنما هو عن استكبار وعناد، لا عن شك وارتياب.

وقد وُجدَ إنكار الربوبية على وجه التكبّر والعناد في أمم سابقة، منهم: عاد حينما قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] .

وأشهر من عرف تجاهله بإنكار الخالق وادعاؤه بأنه إله من دون الله هو: فرعون، كما قال تعالى عنه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨] .

فإنكاره لربوبية الله عزَّ وجلَّ ما كان إلا عن مكابرة، كما قال جل وعلا عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] .

كما وجد هذا الشرك في ملِك قوم إبراهيم عليه السلام عندما قال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ

(١) المصدر السابق (٨/ ٤٩١).
(٢) المصدر السابق (٨/ ٤٤١).

وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] لما قال له إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

وقد وجد شرك النصارى بالتثليث، ولكنهم لم يثبوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض، بل إنهم متفقون على أن صانع العالم واحد، وفي الحقيقة أنهم مضطربون في فهم هذه العقيدة وفي التعبير عنها؛ فلا يكاد واحد يعبر عنها بمعنى معقول، ولا يكاد اثنان يتفقان على معنى واحد؛ فإنهم يقولون: هو واحد بالذات، ثلاثة بالأقنوم!(١).

وكذلك وجد شرك الثنوية الذين يقولون بالأصلين النور والظلمة، وأن النور خلق الخير، والظلمة خلقت الشر، ثم ذكروا لهم في الظلمة قولين: أحدهما أنها محدثة فتكون من جملة المخلوقات له، والثاني أنها قديمة لكنها لم تفعل إلا الشر فكانت ناقصة في ذاتها وصفاتها ومفعولاتها عن النور(٢).

ومع ذلك لم يكن التعطيل والجحود لربوبية الله عزَّ وجلَّ غالبًا في أمة من الأمم السابقة(٣)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله -: "جحود الصانع لم يكن دينا غالبا في أمة من الأمم قط، وإنما كان على دين الكفار الخارجين عن الرسالة هو الإشراك، وإنما كان يجحد الصانع بعض الناس، وأولئك كان علماؤهم من الفلاسفة الصابئة المشركين الذين يعظمون الهياكل والكواكب والأصنام، والأخبار المروية من نقل أخبارهم وسيرهم كلها تدل على ذلك، ولكن فرعون موسى...كان في الباطن عارفًا بوجود الصانع، وإنما استكبر كإبليس وأنكر وجوده"(٤).

الحاصل:أن الأمم السابقة قد حصل منهم الشرك في بعض خصائص الربوبية،

---

(١) ينظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ١٥٨ - ١٧٠).

(٢) ينظر: الرسالة التدمرية (ص: ١١٥ - ١١٦).

(٣) ينظر: الشرك في القديم والحديث (ص:٣٧٧ - ٣٨٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٨).

ولكن التعطيل المطلق لم يكن صفة عامة لأمة من الأمم؛ فلم يثبت أحد منهم صانعا متماثلًا في الصفات والأفعال،قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله -: "وقد ذكر أرباب المقالات ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين في الملل والنحل والآراء والديانات فلم ينقلوا عن أحد إثبات شريك مشارك له في خلق جميع المخلوقات، ولا مماثل له في جميع الصفات..."(١).

ب- مظاهر الشرك في الأمم السابقة في الألوهية:

إن الإنسان لا يتخلى عن العبادة أبدًا، سواء تكون عبادته للمعبود الحق أو للمعبودات الباطلة؛ لأن القلوب مفطورة على محبة إلهها وفاطرها وتألهه(٢)، وحاجة الناس إلى التأله أعظم من حاجتهم إلى الغذاء؛ فإن الغذاء إذا فقد يفسد الجسم، وبفقد التأله تفسد النفس، ولن يصلحهم إلا تأله الله وعبادته وحده لا شريك له، وهي الفطرة التي فطروا عليها(٣).

فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لابعلة(٤)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "فالإنسان وكل مخلوق فقير إلى الله بالذات، وفقره من لوازم ذاته، يمتنع أن يكون إلا فقيرا إلى خالقه، وليس أحد غنيا بنفسه إلا الله وحده، فهو الصمد الغني عما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، فالعبد فقير إلى الله من جهة ربوبيته ومن جهة إلهيته"(٥).

ولذلك لا يصلح قلب العبد وروحه إلا بتأله الله عزَّ وجلَّ، ومحبته وعبادته وخوفه ورجائه، قال ابن القيم -رحمه الله-: "فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، ولا صلاح له إلا بإلهه الحق الذي لا إله إلا هو، فلا يطمئن إلا بذكره، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه،

(١) الرسالة التدمرية (ص: ١١٥ – ١١٦).
(٢) ينظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ١٥٨).
(٣) ينظر: قاعدة في المحبة (ص:٤٤).
(٤) ينظر: طريق الهجرتين (ص: ٨ – ٩).
(٥) مجموع الفتاوى (١/ ٤٢).

وهو كادح إليه كدحا فملاقيه، ولا بد له من لقائه، ولا صلاح له إلا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه..."(١).

فالأصل في باب الألوهية هوأن العباد وذواتهم فقيرة إلى الله تعالى، وإلههم الحق فلا بد لهم منه في كل وقت وفي كل حال، والإيمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذائهم وقوتهم، وصلاحهم وقوامهم، كما عليه أهل الإيمان، ودلت عليه السنة والقرآن، وشهدت به الفطرة والجنان(٢).

وبناءً على ما سبق أن الأمم السابقة لا بد أن كانوا عبّادا لله وحده أو عبّادا لغيره تعالى؛ فالذين وقع منهم الشرك، كان أغلب شركهم في الألوهية، كما قامت على ذلك أدلة الكتاب والسنة، وأما الذين أشركوا في بعض خصائص الربوبية فشركهم هذا يستلزم الشرك في العبادة أيضًا(٣).

وهناك نموذج مختصر عن شرك الأمم السابقة في الألوهية والعبادة فيما يلي:

١ – الشرك بعبادة الصالحين، وكان هذا مبدأ الشرك في البشرية، حيث كان في قوم نوح عليه السلام.

٢ –الشرك بالعكوف على القبور، كان في قوم، وقوم إلياس عليهما السلام.

٣ – الشرك بعبادة الأصنام، كان في قوم نوح عليه السلام، وقوم هود عليه السلام، وقوم صالح عليه السلام، وبعض قوم إبراهيم عليه السلام، وقوم إلياس عليه السلام، وقوم شعيب عليه السلام، وقوم يوسف عليه السلام، وقوم موسى عليه السلام بعد موته.

٤ – الشرك بعبادة الكواكب، وكان في قوم إبراهيم عليه السلام.

٥ – الشرك بعبادة الهوى، وكان في قوم لوط عليه السلام.

٦ – الشرك بعبادة الرؤساء والحيوانات، مثل ما وقع في قوم موسى عليه السلام في حياته وبعد مماته، وما

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٠-٣١).
(٢) المصدر السابق (١/ ٣٠-٣١).
(٣)ينظر: والشرك في القديم والحديث (ص:٣٨٩).

حكى الله عزَّ وجلَّ عن الملأ في جميع الأمم.

٧ – الشرك بعبادة الأحبار والرهبان، وكان في قوم موسى عليه السلام، وقوم عيسى عليه السلام.

٨ – الشرك بعبادة الأنبياء والرسل، وكان في قوم موسى عليه السلام بعبادة عزير، وفي قوم عيسى بعبادة المسيح عليه السلام(١).

خلاصة القول:

أن أغلب شرك الأمم كان في العبادة، وذلك إما إعطاء خصائص الألوهية لغير الله، وإما بمشاركة غير الله فيما هو حق الله تعالى(٢)، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "أن أصل الشرك في العالم كان من عبادة البشر الصالحين وعبادة تماثيلهم ... ومن الشرك ما كان أصله عبادة الكواكب؛ إما الشمس وإما القمر وإما غيرهما، وصورت الأصنام طلاسم لتلك الكواكب، وشرك قوم إبراهيم – والله أعلم – كان من هذا أو كان بعضه من هذا، ومن الشرك ما كان أصله عبادة الملائكة أو الجن، وضعت الأصنام لأجلهم..."(٣).

***

(١)ينظر: رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله (ص: ٤٣٩ –٤٤٠)، والشرك في القديم والحديث (ص:٣٨٩).

(٢) ينظر: الشرك في القديم والحديث (ص: ٣٨٩ – ٣٩٢).

(٣)مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٦٠).